

مازونة مركزا للفقه المالكي في العصر الزياني من خلال مخطوط "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للمازوني.

الأستاذ : نور الدين غرداوي

باحث منتسب للمغرب

عرف المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط حركة فكرية وعلمية نشيطة، جسدها العلماء الذين سخروا أنفسهم لخدمة الدين ومختلف العلوم، متّخذين العديد من الأماكن والمناطق كحواضر لدراسة هذه العلوم وتدريسها، وجسرا للتفاعل والمشاركة بين مختلف الأقطار المشرقية والأندلسية، وحتى الأوربية، وإفريقيا جنوب الصحراء، ومن بين هذه الحواضر مازونة، التي زارها العديد من الرحالة، ووقف عند رونقة وجمال هذه الحاضرة، حيث يصفها أحد الرحالة خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي بقوله: "هي مدينة أزلية بناها الرومان، حسب قول بعضهم على بعد نحو أربعين ميلا من البحر تمتد على مسافة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة... لقد كانت المدينة متحضرة جدا في القديم لكنها كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إما نساجون أو فلاحون، وجميعهم تقريبا فقراء لأن الأعراب يثقلون كواهلهم بالآتاوات والأراضي المزروعة تعطي غلة حسنة، ويشاهد بقرب المدينة أماكن خربة مما كان بناه الرومان لا تحمل أي اسم معروف لدينا، لكن مما يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام، ولم يذكرها قط مؤرخونا الأفارقة".⁽¹⁾

ويصفها الإدريسي: "أما مدينة تقع على ستة أميال من البحر، وهي مدينة بين جبل في أسفل خندق ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومسكن مونة ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان، والسمن، والعسل كثير بها، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا".⁽²⁾

ومن الذين اهتموا بهذه الحاضرة أستاذنا مولاي بالحميسي بالعديد من الدراسات، حيث وصفها بأنها بلدة عريقة عتيقة أسست في قلب جبال الظهرة منذ الزمان في موقع متميز، وافر المياه، كثير الغابات متحصن، يراقب طريق بين الشرق والغرب، ولهذا كله اهتم بها حكام المغرب عبر العصور حتى مستها حروب تكاد لا تنتهي، فعانت من الصراع والتزاع أيام ملوك إفريقية والمرابطين والموحدين وبني زيان أصحاب تلمسان، ثم أتراك الجزائر الذين أنشأوا بها أول بابلك لهم في غرب البلاد.⁽³⁾

والحديث عن هذه الحاضرة يجعلنا متعطشين لمعرفة المزيد عن هذه الجوهرة التي لعبت دورا بارزا في عملية التواصل بين أقطار المغرب الإسلامي، في وقت عرفت فيه بلاد المغرب العديد من الفتن والقلاقل، فهذا القطر من العالم الإسلامي تعرض لأزمات أمنية خانقة، ولحظات حرجة داخليا، مثل الصراع المستمر والحاد بين المرينيين والزيانيين والحفصيين، بسبب حب الاستئثار وبسط النفوذ على ربوع المغرب الإسلامي، إضافة إلى الشقاق والتزاع الذي كان ضاربا أطنابه بين الأسر الحاكمة، نظرا لكثرة الطامعين منهم في الملك والانفراد به، حتى ولو أدى ذلك إلى قتل الآباء والإخوة والأعمام، والاستعانة بالموالي والمعاوي والقاصي والداني⁽⁴⁾ إلا أن حاضرة مازونة بقيت جسرا للتواصل بين ربوع المغرب الإسلامي، وحتى خارجها، ولم تستوف حقها إذا ما قورنت بالخواضر الأخرى كالقيروان، وبجاية وتلمسان وفاس، وغيرهم، وقد خصص لهذه الخواضر العديد من الباحثين

والدارسين دراسات متنوعة وكانوا محل نقاش ودراسة في العديد من الملتقيات والمؤتمرات، وما ملتقانا اليوم إلا دليل على منح هذه الجوهرة ما تستحقه من عناية بتاريخها وتاريخ أبنائها الذين ضحوا بالنفس والنفيس من أجل رفع مكانتها بين الحواضر الأخرى، وما زالوا إلى اليوم في الصدارة العلمية، وما نتائج البكالوريا الجيدة التي تتحصل عليها ولاية غليزان على المستوى الوطني في الفترة الراهنة إلا دليل على نضج أبنائها في الماضي والحاضر وتقديسهم للعلم والعلماء.

وليس الغرض من هذه المحاضرة التعرض للتاريخ الطويل والحافل بالأحداث الثقافية والفكرية لمدينة مازونة، وإنني سأقتصر في هذه المداخل على عالم من مازونة كان له دور كبير في باب الفتيا ببلاد المغرب، وعمل على الفصل بين الخصوم وفق الكتاب والسنة، وعلت شهرته، فاستدعي للإفتاء بعاصمة المغرب الأوسط خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي، واستنتجت ذلك من خلال تقرير تلميذه أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب موسوعة المعيار، سنشير إلى ذلك في تعريفنا له لاحقا.

فمن يكون هذا العالم؟ وماذا ترك من تراث فكري؟ وما المكانة التي حظي بها بين معاصريه في العالم الإسلامي؟

كل هذه التساؤلات سنحجب عليها من خلال تدخلنا في هذا الملتقى، وبالمناسبة نشكر السلطات المحلية لولاية غليزان، ومازونة في تدعيمهم لمعرفة ماضي أسلافهم، وما تركوه من تراث حضاري لا يقدر بثمن، ويساهمون دائما في التعريف بماضي هذه الحضارة وتاريخها العريق.

1- التعريف بالكاظم:

هو أبو زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي⁽⁵⁾ المازوني، ولد ونشأ بـمازونة، ودرس بها على والده⁽⁶⁾، قال فيه تلميذه أحمد الونشريسي: "... هو سليل العلماء الأكابر، ومن بيت العلم المعروف العلامة الحجة، والفقيه المالكي الضليع، الأصولي

المتمكن، المحدث المفسر، المطلع البحاثة، مفيد الطالبين، ومرجع القضاة والمفتين، وشيخ كبار العلماء في الديار المغربية خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي...⁽⁷⁾

وقال عنه التادلي: "... آية من آيات الله في العلوم، محدث فقيه حاف (كذا) محقق، وقدرة عالية في معرفة الحديث، وقال من أدركنا من الفضلاء أنه يحفظ 27000 حديث، وفي رواية أخرى يقول أنه كان إماما مشاركا في فنون العلم يستحضر نحو 40000 حديث بإسنادها، وناظره مرة بهذا المسجد - مسجد حومته - عالم قدم من بلاد المصامدة...⁽⁸⁾

ولا نكاد نعرف من هو التادلي الذي قصده مولاي بلحميسي، لأنني لم أستطع الحصول على المخطوط، ومن يمدني بمعلومات عنه، فقد ورد في إحدى الكتب التاريخية اسم أبي الحجاج يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي له كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"⁽⁹⁾، وهناك كتاب آخر باسم "التشوف إلى رجال التصوف"⁽¹⁰⁾، ونحن نعلم أن مؤلف "الدرر" عاش خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي.⁽¹¹⁾

وقال فيه شيخه محمد بن العباس⁽¹²⁾ في آخر جواب عن سؤال أورده عليه: "...والسلام الكريم عليكم أيها العلامة المفيد المتقن المجيد والمقدم في النظر والمستخرج الجواهر النفيسة من أقصى لجج البحار، ورحمة الله تعالى وبركاته، يعتمد أن مقامكم لا زلتم آخذين بزمام العلم، رافعين رايته، مستولين على حفظه، بالغين من الكمال غايته، من محمد بن العباس لطف الله به، داعيا لكم بنيل المطلوب وإزاحة العلل والكروب، محبا لكم في الله معترفا بفضلكم، بجلا المقام عليكم (كذا) - حفظه الله وفاه...⁽¹³⁾

وقال عنه أيضا في جواب عن سؤال آخر: "... الحمد لله - حفظكم الله وتولاكم بخير وعافية، وأدام النفع، وبقاء رسم العلم بكم ووقاكم، بعد السلام

عليكم ورحمة الله وبركاته، فقد ووقف على مخاطبتكم المشرفة ومباحثكم الرائقة المرقعة - زادكم الله من فضله وأكثر للمسلمين أمثالكم بمنه وطوله- فوقعت مني موقع (كذا)، وصادفت من محل القبول موضعاً...⁽¹⁴⁾

وقال فيه شيخه محمد بن أحمد العقباني في صدر جواب عن سؤال كاتبه به: "... الحمد لله أطال الله بقاءك يا نعم الفاضل المفيد، وأدام توفيقك للنظر الصالح السديد، وسني بمنه علاء قائما بما يحبه ويرضاه، مختتم بالك بحسناتها، مصنوعا لك ما تتمناه، تصفحت مسائلك الفرادی التي أُلجأت المسؤل، وتمنيت مضمونها المختوم بالانغلاق، والانفعال، ووجدت عهدا بما هو معلوم عندي أنك العلم المشار إليه بالإيراد والانفصال الفاتح معضل ما قام به الاستصعاب والاستكمال، وعلمت رغبتك في استعلام ما عند معظمك فيرى على التفصيل والإجمال، فأجبت طلبتك إسعافا وما رأيته أهلا للخوض في خضم هذه الدوائر بفسيح مجال، ولكن مرادك الحسن، ومنظرك المبصر بعين الرضا والتجاوز والإغضاء أوجب مني المساعدة.... فنتيكم الصالحة ترغب أن تصدق منك الأقوال والأفعال..."⁽¹⁵⁾

وقال فيه محمد بن قاسم الرصاع في جواب عن أسئلة كاتبه بما يقوله: "... تأملت الأسئلة الواردة من قلب سليم الدالة على حصول طلب العلم والتعليم أبقى الله سائلها محلا لابتداء الفوائد وعدنا لتحصيل الفوائد..."⁽¹⁶⁾ وغيرها. ويسميه صاحب كتاب " البستان " يحيى ابن إدريس.⁽¹⁷⁾

ونستنتج من خلال هذه النوازل التي أوردناها أن المازوني كان يحظى باحترام الجميع وكانت له مكانة بين معاصريه من العلماء والفقهاء في المغرب الأوسط وفي باقي ربوع المغرب الإسلامي.

ولا نكاد نعرف أخبار كثيرة عن هذه الشخصية المشهورة في المنطقة خلال القرن التاسع الهجري، والتي يجب أن تدرس في إطار العلماء من جهة، ومن جهة أخرى في إطار الفقہ الإسلامي، غير أنه لم يعتن بدراسة المازوني إلا القليل من

الباحثین، رغم أن عددا من المؤرخین والأدباء اعتمدوا على كتابه، وخاصة بعض جوانب حياته، وما زال جزء یكتنفه الغموض.⁽¹⁸⁾

وهذه المعلومات القليلة جدا استقیناها مما كتبه عنه بعض المؤرخین الذين حاولوا إمطة اللثام عن شخصيته في متاهات التناقض والاضطراب والالتجاء إلى التكهّنات، وكل ذلك بسبب فقدان المصادر والمراجع التي تناولت حياته بالتفصیل، واحتیاج الموجود منها إلى البیان والتوضیح وبقيت جوانب كثيرة متعلقة به وبأسرته مجهولة، ولم یكشف القناع عنها حتى یومنا هذا بالرغم من وجود بعض الدراسات حول نوازلہ.⁽¹⁹⁾

واعتمدت في دراستي لهذه الشخصية على بعض المصادر والمراجع التي تتحدث عنه باختصار شديد، أما الوثيقة⁽²⁰⁾ التي ساعدتني كثيرا في التعریف بشخصيته وسبب انتقاله من مازونة إلى تلمسان لممارسة القضاء والتدريس فيها والتي تحصلت علیها من النسخة الموجودة في مكتبة العلامة الباحث المهدي البوعبدلي⁽²¹⁾، یعود له الفضل في توجيهنا لهذه الوثيقة التي أشار إليها في مقالین.⁽²²⁾ ولا نعرف لمیلاد المازوني تاريخيا، وإن كنا نعرف أنه توفي سنة 883هـ/1478م⁽²³⁾ ولا نعرف عن دراسته شيئا، ولكن يبدو كعادة ذلك الوقت أنه درس في قريته على يد والده وعلى مشايخ تلك المنطقة التي نشأ بها، على عادة أهل البوادي في دفع صبيائهم إلى معلمین يقومون على تأديبهم، بدءا بحفظ القرآن وما يتعلق به من رسم لألفاظه، وبعض مبادئ اللغة، ثم باقي مختلف العلوم، كقراءة المختصرات المتداولة في ذلك الوقت، ومبادئ النحو، وعلم الفرائض، كما أنه أخذ فقه القضاء على والده الذي كان قاضيا فقيها یشار إليه بالبنان في بلدة مازونة وحتى خارجها⁽²⁴⁾، وكان والده یتقن هذه العلوم إتقاناً تاماً بحکم منصب القضاء والتدريس الذين كان یمارسهما في مازونة، كما أننا نعلم على وجه التحقیق أن بعض الشيوخ الذين درس وأخذ عنهم المازوني⁽²⁵⁾، هم شيوخ تتلمذ علیهم بالحاسبة، وذلك حسب ما

ورد في مقدمة تأليفه، وما ذكرته المصادر التي تتحدث عن نوازل، كابن مرزوق الحفيد المتوفى 833 هـ / 1439م⁽²⁶⁾، وقاسم العقباي المتوفى 854 هـ / 1450م⁽²⁷⁾، وابن زاغو المتوفى 833 هـ / 1430م⁽²⁸⁾، ومحمد بن العباس التلمساني المتوفى 871 هـ / 1467م⁽²⁹⁾.

أما الصنف الثاني من شيوخه، فكان يرأسهم من أجل الحصول على الأجوبة للأسئلة والفتاوى التي تطرح عليه، أو التي يقع له فيها غموض، وكان عن طريق مراسلة علماء تلمسان، وتونس، وبجاية، والجزائر وغير ذلك من المناطق، منقبا عما في جعبتهم من العلوم والفنون، لإيجاد حل لما يعرض عليه من مسائل الأحكام كما ذكر في تقديم كتابه، واستفاد من هذه الطريقة في التعليم التي كانت قد عرفت في الماضي بين العلماء شرقا وغربا.

وكام يستفيد من العلماء الذين راسلهم⁽³⁰⁾ ونجد فتاويهم في العديد من المرات في كتاب "الدرر".

وبما أنه تلمذ عن هؤلاء الشيوخ وهو شاب ناشئ، كغيره من طلبة العلم الذين كانوا لا يقدمون على طلب العلم والأخذ على أمثال هؤلاء العلماء إلا بعد حفظ القرآن وإتقان بعض المتن، ودراسة بعض العلوم الأساسية، ومنه نستنتج أن صاحب "الدرر"، قد كان سنه عندما كان تلميذا لهم ولأمثالهم يتراوح ما بين (15-20) سنة، وذلك في العقد الرابع من القرن التاسع الهجري، فهذا يعني أنه من مواليد الربع الأول من القرن التاسع الهجري (15م).

وهناك فرضية أخرى لميلاده، ولكن شريطة أن يتحقق ما قاله في بعض المرات في نوازله عندما يذكر الإمام ابن عرفة⁽³¹⁾ بقوله: "فلاني سمعت من شيخنا ابن عرفة في مجلس تدريسه العلوم العقلية..."⁽³²⁾

وفي نازلة أخرى "... فلاني سمعت من شيخنا ابن عرفة في صحيح مسلم..."⁽³³⁾

ومن كلامه هذا إذا سلمنا أن ابن عرفة هو شيخ المازوني وكان قد درس عليه، فهذا يعني أن المازوني عند التحاقه بمجلس شيوخه ابن عرفة على الأقل يكون عمره عشر سنوات، ومن هذا نفترض أنه من مواليد 793هـ/1391م، أو على الأقل هو من مواليد العشر سنوات الأخيرة من القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي.⁽³⁴⁾

كما أننا لا نعرف كثيرا عن باقي حياته⁽³⁵⁾، ومما لا شك فيه أنه اشتغل بالتعليم والإفتاء كباقي العلماء في هذا العصر⁽³⁶⁾، وكانت داره الواسعة عامرة بقرارات كتب الحديث والتفسير، والتوحيد والفقه، وتزخر بالطلبة والعلماء، والمصلحين النبهاء، مثل أحمد د بن يحيى الونشريسي صاحب موسوعة المعيار، فلا شك أنه خطا تلك الخطوات التي اعتاد عليها أهل البوادي والقرى في تعليم صبيانهم⁽³⁷⁾، ونكشف من هذه الأخبار القليلة أن المازوني لم يخرج من مازونة إلا بعد أن علا صيته كعالم وفقه وقاض، وبعد أن أوجد له مكانا في مدرسة مازونة⁽³⁸⁾ سواء في التدريس أو الإفتاء حسب ما جاء في كتب التراجم السالفة الذكر.

ووجدناه في إحدى نوازله يذكر أنه تولى قضاء مدينة تنس، حيث يقول: "...وسألت شيخنا وسيدنا أبي الفضل العقباني وقلت له يا سيدي نريد الجواب الشافي في مسألتني، وذلك أني لما توليت قضاء تنس وجدت مرتب قاضيها يؤخذ من الباب...."⁽³⁹⁾

ولكن لا نعرف متى تقلد منصب القضاء، سواء في مازونة، أو تنس، والمدة التي قضاها في هذا المنصب، وفي التدريس، بعد كل هذا علت شهرته، وتوجه نحو تلمسان⁽⁴⁰⁾، وكان يطلب من سلطاتها⁽⁴¹⁾، وهذا عندما اشتدت الفوضى والاضطراب داخل الإمارة الزيانية بين الرعية والحكام، وذلك من أجل النظر في حوائج الرعية وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين، وهذا عندما علا صوته في مازونة، فلقى التحية والتقدير في تلمسان في آخر أيامه وانصب

فيها للتدريس والقضاء والاستشارة بالبلاط، فالتف حوله الطلاب والأنظار من جميع الشرائح، وأفاد واستفاد، حيث قال فيه الونشريسي: "... حين أورد هذا الشيخ المذكور حضرته العلية، صحبة ركابه، وجعله أحد مشيخته الأعلام المشاورين لقصر المنصورة وعلى باب، وها هو الآن يقرى ويفيد ويعيد..."⁽⁴²⁾

وهو ما أكدته إحدى الفتاوى بأنه كان صاحب مجلس علم يقرئ فيه، حيث راسل أحد معاصريه محمد العقباي في أحد أسئلته بقوله: "... أعرف كمالكم أنني أردت أن أعرض عليكم بعض ما يعرض لي للنظر في ذلك بنظركم... منها أن أبا عمرو الداني⁽⁴³⁾... استشكل بعض الطلبة قوله..."⁽⁴⁴⁾

وكان المازوني قد عاش في ظل ثلاثة سلاطين من بني زيان⁽⁴⁵⁾، وشهد خلال تلك الفترة ضعف البناء الداخلي للدولة وعلاقتها السيئة بالسكان، وهجمات الحفصيين المتكررة ضد الزيانيين، والتي وصلت إلى عاصمتهم تلمسان، ومن هذا الكتاب يمكننا الحكم على ضعف بني مرين أيضا، لأن المازوني قد أكثر من النقل عن علماء وسط وشرق الجزائر وتونس، بدل النقل عن علماء فاس عاصمة المرينيين، كما يدل ذلك على اتجاه الدراسة والبحث نحو المشرق.⁽⁴⁶⁾

واستقر بحاضرة تلمسان إلى أن وافته المنية سنة 883هـ / 1478م، ودفن بها، وخلد اسمه بحارة الرحبية قرب باب الجياد المشهور في عصرنا بمدينة تلمسان.⁽⁴⁷⁾

2- التعريف بالمخطوط (الدرر):

ننتقل إلى الحديث عن التأليف وهو "الدرر المكنونة في نوازل مازونة"، وهو من التأليف القيمة التي لها وزن وفوائد، وقبل أن ندخل في صميم التعريف به، نذكر الأسباب الداعية إلى تأليفه حسبما ذكرها المؤلف في تقديمه، كما لا يفوتنا أن نلفت نظر القارئ إلى حالة البلاد في عصر المؤلف التي كانت سيئة جدا، وفيها تضاعف النظام، وحل الضرار، والظلم، والنهب، والغضب، والضغط، وعمت على المحاصيل، فكانت الرعية مضطهدة بلا شفقة، ومستغلة بلا رحمة فقد أكل

القوي الضعيف وقويت شوكة الأعراب المتغللين، أمثال بني عامر وسويد، واحتار الناس في أمر دينهم ودنياهم وضاعت أحوال سكان المدن، كل هذه السلبات من دواعي تأليف "الدرر" لمعرفة الأحكام المترتبة على تلك الظواهر، ولذا ما من كبيرة أو صغيرة تمس المجتمع إلا وكان بها فتوى، وسرعان ما ذاع شأن الدرر فدعي المغيلي إلى بلاط تلمسان مقيما.⁽⁴⁸⁾

وقد كانت القضايا الذي تحدث عنها المازوني معبرة عن روح العصر، فالنوازل تدور حول مشاكل سياسية واجتماعية خطيرة كان مجتمع القرن التاسع يعاني منها، ومن ذلك اللصوصية والظلم، والغصب، والضرار، وتخريب السلاح، والمصادمات الجماعية، والأوبئة، والجاعات وغيرها، وهي الدوافع التي أرغمت الناس على مغادرة منازلهم وأوطانهم، فالحروب والغارات لم تسمح للفلاحين بالقيام بزراعة الأرض، وتوفير الإنتاج، وانعدام الأمن، وتراخي قبضة السلطان، جعلت الناس يفقدون العدل في الحكم، ويعتمدون على أنفسهم في نيل حقوقهم، وهكذا أصبح العلماء والقضاة حسب نوازل المازوني، هم الذين يقومون على تنفيذ القانون.⁽⁴⁹⁾

وقد بين ذلك في تقديم تأليفه حيث قال: "فلاني لما امتحنت بخطّة الفصل، في عنفوان الشباب، وقادني إليها ما يعلمه الله من الأمور الصعاب، وكثرت عليّ نوازل الخصوم، وتوالت لديّ شكليات المعلوم، وقصر الباع عن إدراك ما لا يتطرق إليه التباس، من نص جليّ واضح قياس، لجأت إلى كتب الأسدية فيما يشكل من نوازل الأحكام..."⁽⁵⁰⁾

ثم يضيف: "... فضممت ما كنت جمعت وما جمع مولاي الوالد، رحمه الله، وما وجدته بيد الخصوم، وببد بعض قضاة وطننا من أجوبة المتأخرين المتضمنة مسائل العبادات ومسائل العادات، مع ما كنت أسأل عنه أو سأله غيري مما يقع لي مع الأصحاب في المذكرات في مجلس الإقراء من أشكال كلام ابن الحاجب أو شرحه..."⁽⁵¹⁾

ويواصل قائلا: "... وأضفت إلى ذلك ما كنت تلقيته من أشياخي من بنات فكرهم أو نقل غريب من غيرهم يتشوق الطالب إليه وتشرح نفسه..."⁽⁵²⁾

ولما خشي أن يضيع منه هذا التراث، ولم يكن له الوقت الكافي لجمعه على أبواب، جمعه على غير ترتيب، وفي هذا المضمار يقول: "... وضعت ذلك في كراريس عديدة على غير ترتيب خوف الضياع، وللعزم على ترتيبها على أبواب الفقه ليحصل بها الانتفاع.. واقتصرت في ذلك على أجوبة المتأخرين من علماء تونس وبجاية والمغرب الأوسط وأشياخها التلمسانيين..."⁽⁵³⁾

وبعد أن أنهى كتابة مسودة كتابه قام بترتيبه في كتاب، وفي ذلك يقول: "... والآن قصدت إلى ترتيبها على أبواب الفقه في مجموع يحصل به الانتفاع ويتمتع به الناظر أي إمتاع، وسميته بالدرر المكنونة في نوازل مازونة..."⁽⁵⁴⁾ تقتصر على هذه الفقرات التي ذكرها في مقدمة تأليفه، وقد قسم تأليفه إلى أبواب حسب أبواب الفقه.⁽⁵⁵⁾

واستنتجنا ذلك من خلال نسخة وهران، بقوله: انتهى النصف الثاني من الدرر المكنونة في نوازل مازونة، وكان الفراغ منه عام تسعة وستين ومائة وألف، قد كمل وتم هذا الديوان المسمى بالدرر المكنونة في نوازل مازونة، من أوله إلى آخره، وهو مشتمل على أربعة أجزاء:

الأول: خاص بالنكاح.

الثاني: كتاب الضرر والخصومات والدعاوي.

الثالث: خاص بالوصية.

الرابع: كتاب الجامع.

وهناك تعقيب المهدي البوعبدلي في آخر النسخة، بل كمل نسخ جميع المخطوط "الكتاب"، وقد صحح هذه النسخة على نسخة قلعة بني راشد.⁽⁵⁶⁾

أ- وصف المخطوط: اعتمدت في دراستي هذه بالدرجة الأولى على نسخة المكتبة الوطنية لأنها النسخة التي استطعت الحصول عليها كاملة، عكس النسخ الأخرى⁽⁵⁷⁾ التي تحصلت منها على بعض الأوراق وبعض الأقراص المضغوطة الغير الكاملة.

- الجزء الأول: يتكون من 512 ورقة، وكل ورقة تتكون من وجه، وظهر، تحت رقم: 1335.

- الجزء الثاني: يتكون من 190 ورقة، وكل ورقة تتكون من وجه، وظهر، تحت رقم: 1336.

مرقمان بالأرقام الهندية، الورق الكتاني سميك، لونه يضرب إلى الصفرة، والخط مغربي واضح عموماً إلا ما ندر، وجميل إلى حد كبير، مزين من حين لآخر بشريطين من اللون الأحمر، بكل صفحة هامشان صغيران على اليمين واليسار يستعملان للتوضيح، أو لمسألة مهمة أو عنوان مهم، وفي الهامش زيادات وتصحيحات نجدها على الجانبين، ونجد أيضاً تعليقات مثل: "عونك يا معين باتجاه (كذا) الحسن والحسين"، ونجد عنوان الفصل مكتوب بالخط الغليظ وباللون الأحمر، وكذلك تكتب أسماء العلماء الذين سئلوا وأجابوا عن المسائل، مما يسهل قراءة المخطوط بمرور عناوينه.

والفرق بين الجزئين يكمن في الخط⁽⁵⁸⁾، وتقسيمه حسب أبواب الفقه⁽⁵⁹⁾ وحالة كل جزء⁽⁶⁰⁾، وعدد سطور كل واحد منهما⁽⁶¹⁾.

ب- أهميته:

يعتبر من الكتب التراثية ذات الاتجاه الشرعي التي تعالج موضوعاً واحد وهو الفتاوى والمسائل الفقهية الخاصة ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، وهو من المصادر الفقهية التي تنسب إلى الفقه المالكي رفقة المعيار للنشر في خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهو ما جعله من المصادر الأساسية للفقہ خلال هذه الفترة، ويحتوي على مجموعة كبيرة من النوازل

والفتاوى، وهي مفيدة في مجال البحوث والدراسات التاريخية، والإسلامية لكن دراستها وتحليلها يتطلب وقتا طويلا، ونفسا أطول لغير المختصين في الفقه، والتعمق في المدارس الفقهية.

أما المعلومات التاريخية التي تضمنها كتاب الدرر، فهي محدودة بالنسبة للأحداث السياسية لكنها غنية فيما يخص الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد، والأوضاع الاقتصادية لما أثاره من مسائل وقضايا تمس الفلاحة، والتجارة، والصناعة، والري، والأمن، والمحاصيل، والعمل، والضرائب، والتعاون، والأوضاع الفكرية، كالتربية والتعليم، والمؤسسات التعليمية وطرق التعليم والكتب المعتمدة، والآراء الجديدة والعقدية التي حملتها في ثناياها نوازل وفتاوى الدرر.

وقد تنبه إلى أهميته المستشرق الفرنسي جاك بيرك، وكرس أكثر من دراسة لهذا الكتاب.⁽⁶²⁾

كما اعتمده علماء التراجم كابن مريم صاحب " البستان"، وبابا التمكني في كتابه " نيل الابتهاج" واقتصر على ما ورد فيه من ترجمة للأعلام- على وجازتها- في كثير من الأحيان.⁽⁶³⁾

وكان تلميذه أحمد بن يحيى الونشريسي قد أخذ منه عند فراره من الملك الزياني المتوكل أثناء إقامته في مازونة، وكتب عليه إجازته وتقريظه، حيث يذكر فيه: "... وبعد فإني لما طالعت السفر الثاني على أرمزة الأنكحة والبيوع من التأليف الجامع المطبوع المفيد هذا على أول ورقة منه المترجم بالدرر المكونة في نوازل مازونة جمع الفقيه الشيخ... أبي زكريا سيدي يحيى..."⁽⁶⁴⁾، وكان هذا قبل رحيله إلى المغرب الأقصى، ويؤلف كتابه المعيار الذي زوده ببعض فتاوى شيخه المازوني، لأننا نجد بعض المسائل في المعيار مطابقة لنصوص ومسائل الدرر، وهو ما ذكرناه في العديد من المرات في هذه الرسالة، وهو ما أكدته أيضا كتب التراجم التي تطرقت للمازوني، والونشريسي، ويذكر محقق كتاب المعيار أن الونشريسي شرع

في تأليف كتابه بعد رحيله إلى فاس، حوالي 890 هـ/1485م.⁽⁶⁵⁾

أما من كان السباق في استعماله في الدراسات الأكاديمية المعاصرة بالمدرسة الجزائرية على ما يبدو لي فهو الأستاذ مختار حساني، في إعداد أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه⁽⁶⁶⁾، والذي اعتمد على العديد من النوازل والفتاوى في تصنيف ملكيات الأراضي في الدولة الزيانية، والنظام الزراعي، وتأثير الأمن والاستقرار على الجانبين الاجتماعي والاقتصادي، وغيرها من المجالات الأخرى، لأن دراسته كانت غير بعيدة عن فترة المازوني، وكذلك وجود بعض الدراسات الأخرى التي اعتمدت على نوازل المازوني، كأطروحة محمد الأمين بلغيث في دراسة الحياة الفكرية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين، وخاصة عند حديثه عن الآراء الجديدة والعقدية التي احتوتها نوازل العصر، وغيرها من الدراسات التي نذكرها في هذه الدراسة كلما دعت الضرورة لذلك والاستدلال بها.

وإلى جانب قيمته التاريخية التي ذكرناها، فله قيمة فقهية أيضا، فقد اشتمل على حوالي ستين بابا فقهيا⁽⁶⁷⁾، وزع عليها فتاوى علماء القرن التاسع في الغرب الإسلامي، وجعلها في كتاب واحد، وهذا يعد مرجعا مهما للقضاة والمفتين في تنزيل أحكام كثيرة من النوازل والقضايا المستجدة على ما شابهها من نوازل سبق فيها حكم وقضاء.

وقد اعتمد عليه كثير من العلماء في باب الفتوى على مذهب مالك، وذلك بشهادة صاحب الطليحية، عند حديثه عن الكتب المعتمدة في الفتوى على مذهب الإمام مالك بقوله⁽⁶⁸⁾.

واعتمدوا الطرر لابن الأعرج	وطرر الطنجي غير بهرج
واعتمدوا نوازل الماللي	ودره النثر كالألي
كذلك ما يعزى إلى المازونة	وهو المسمى الدرر المكنونة

ج- موارد المخطوط (اعتماده في المخطوط):

استقى المازوني مادة "الدرر" من الكتب المتوفرة لديه، والروايات التي انتهت إليه، فبالنسبة للمسائل المتقدمة عن عصره اعتمد فيها على مصنفات الفقہ المالکي⁽⁶⁹⁾، وفتاوى من سبقه⁽⁷⁰⁾، أما بالنسبة للمسائل التي كان قريبا منها وعاصرها، فقد اعتمد فيها على الفتاوى الشفوية التي سمعها من شيوخه أو التي كان حاضرا في مجالسها⁽⁷¹⁾ أو التي راسل بها العلماء والفقهاء في مختلف ربوع المغرب الإسلامي، ووجد ضالته في خزانة قاضي مازونة "والده" الذي تتلمذ عليه⁽⁷²⁾، وكانت مكتبته غنية جمعت العديد من كتب الفقہ والفتوى التي جمعتها أسرته منذ فترة طويلة.⁽⁷³⁾

ويجد المتفحص المتمعن عدداً كبيراً من الفتاوى، هي على شكل أسئلة وأجوبة، وفي أسلوب رسائل⁽⁷⁴⁾ وصيغة خطابات بين السائل والمجيب.⁽⁷⁵⁾

فالمسائل موضوعات ووقائع شغلت بال المغاربة، وردت على الفقهاء والعلماء والقضاة والمشاورين، تأتيهم من عامة المسلمين، وحتى من الأمراء وأعوانهم، ومن العلماء أنفسهم وطلبته، وهي تحمل أسماء المستفتين وصفاتهم، والمسائل التي وردت في كتاب الدرر، كانت تأتي من ربوع المغرب الإسلامي⁽⁷⁶⁾ وحملت عبارات تقديرية واحتراما بين السائل والمجيب.

إن طريقة المازوني في وضعه لكتاب "الدرر" تمثلت في تصنيف المادة التي يريد نقلها حسب أبواب الفقہ مع ذكر أسماء المفتين، وإثبات نصوص الأسئلة كما صدرت عن أصحابها حتى ولو كانوا محدودي الثقافة دون التدخل في تصحيحها، وتكرر الفتاوى أحيانا في الدرر، بنص السؤال والجواب إما لاستمالة الفتوى المتكررة على مسائل تتعلق بأبواب فقهية متعددة.

وخلاصة القول أن بلاد المغرب عرفت ازدهارا اقتصاديا وفكريا وحضاريا خلال العصر الوسيط بالرغم من العراقيل والصعوبات التي كانت تعمل على

إضعاف هذا القطر والإخلال بالنظام العام داخله، سواء من طرف العدو المسيحي الصليبي، أو من حركة المناوئين داخله، والذين همهم مصلحتهم على حساب وطنهم، وبني جلدتهم، إلا أنه بقي محافظا على استقلاله الخارجي، وهذا بفضل نظام الحكم الإسلامي، الذي تعاقبت عليه عدة حكومات (دويلات)، حتى ولو أن هذا القطر لم تتوحد كل أجزائه، من إقليم برقة إلى المحيط الأطلسي، إلا أن الرابط العرقي والديني الذي كان يجمع بين أقاليمه كان أقوى من ذلك بكثير.

ولعب العلماء والفقهاء دورا كبيرا في هذا الازدهار والتواصل الحضاري بين مختلف أقطاره، والعمل على توعية وإصلاح مجتمعاتهم، وذلك عن طريق، تبين وتوضيح عقيدتهم، وغرس بذور الدين والوطن في بلاد المغرب.

وكان للفقهاء دور كبير في الحياة اليومية للمجتمع المغربي، وتكمن هذه الأهمية في النظر ودراسة مختلف القضايا التي كانت محل اهتمام مختلف الطبقات الاجتماعية، سواء كانت خاصة بهم أو علاقتهم مع المجتمعات أخرى، وهذا من أجل الوصول إلى أحكام مستنبطة من الكتاب والسنة والاجتهاد، لأجل إقامة مجتمع تسوده العدالة والمساواة.

ومن بين الفقهاء والقضاة الذين لعبوا دورا كبيرا، من أجل تحقيق ذلك، في فترة دراستنا، وحفظوا باحترام السلاطين والملوك، نظرا لما امتازوا به من نظر ثاقب، وتطبيقهم للشريعة الإسلامية، حتى لو استدعى ذلك إلى الاجتهاد، وعلى حساب مصالحه، أبو زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني، الذي ألف كتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة".

فعند تصفحنا له وجدناه ثري بالعديد من القضايا التي تعبر لنا عن واقع الحياة داخل المجتمع المغربي، في أواخر العصر الوسيط، وهو ما دفعنا إلى القيام بعمل أكاديمي، من أجل الحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، تحت عنوان جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في القرنين الثامن

والناسع المحجرين (14-15م) من خلال " الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للمازوني.

ومن النتائج التي توصلنا إليها من هذه الدراسة التي قمنا بها من خلال النوازل والفتاوى الفقهية - نوازل المازوني نموذجاً- ما يلي:

أن النظام الزراعي الذي كان سائداً يتمركز في الأرياف المغربية، ويعتمد على نظام الشركة القائمة بين الخماس ورب الأرض، والذي يملك وسائل العمل، إضافة إلى وجود العقود الإقطاعية التي تربط المقطع بصاحب الأرض، وكان كل من الخماس والمقطع يشتغل في خدمة الأرض لصالح سيده، والذي يقوم باستغلالهما، على أن الخماس - خلافاً للمقطوع - يتمتع بنسبة ما من الحرية، وهو قادر على فسخ الشركة، كما أنه لم يكن مسخراً بلا رحمة.

كما نستنتج من دراسة عنصر الفلاحة وتربية المواشي ظهور بعض المؤشرات الجديدة في عصر المازوني، مثل تعمير أراضي البور، والاهتمام بغراسة الأشجار، وبداية استقرار القبائل العربية واهتمامها بالفلاحة، والتقنيات المستعملة في نظام المزارعة والسقي، ومنع البعض من الاستئثار بالمياه، وكذلك كيفية استئجار الأراضي الزراعية.

وتوصلنا إلى سبب اهتمام وولوع المغاربة بالصناعات النسيجية أكثر من غيرها، وهذا راجع إلى طبيعة المجتمع المغربي الريفي.

وكذلك توصلنا إلى أصول المعاملات المالية والبيوع التي كانت تجري ببلاد المغرب في مختلف العصور، والعملية المتداولة وخصائصها، وكان الغش الذي عرفته العملة وتبديل السكة يثير إشكالات في مجال التعامل، والنظام الضريبي المتنوع الذي كان سائداً وجاري التعامل به سواء على الأراضي، والمحلات، والأسواق، والموانئ، وغيرها. والمبادلات التجارية في ربوع المغرب الإسلامي وخارجه كيف كانت تتم، وكيف أثرت الأوضاع السياسية والاجتماعية في الأوضاع الاقتصادية، وأدت إلى

انكماش هذه الأخيرة في العديد من المرات، إلا أنها بقيت مستمرة داخليا وخارجيا.

أما النتائج التي توصلنا إليها في الجانب الفكري، فتتمثل في الدور الكبير الذي لعبته الكتاتيب والمساجد، والزوايا، والربط، وحتى المنازل التي كانت تستعمل في التدريس، داخل المجتمع المغربي، ولم يكن للدولة يد في التعليم في القرى والأرياف، وهذا ما استنتجناه من خلال العديد من النوازل التي تتحدث عن أجرة المؤدب من عند أولياء الأولاد، وكذلك احتواء كتاب "الدرر" على طريقة التدريس والكتب المعتمدة في عصر المازوني، كما أنه لم يغفل عن ذكر العديد من العلماء والفقهاء الذين زخر بهم المغرب الإسلامي في عصره أو الفترة التي سبقته.

واتضح لنا بعض المذاهب والفرق التي كانت تريد زحزحة المذهب المالكي الذي كان قد رسخ ببلاد المغرب في عهد المازوني، وهذا ما أدى إلى ظهور العديد من الآراء والأفكار العقديّة التي مست العقيدة لدي الفرد المغربي وشغلت باله عدة قرون، واختلف فيها الفقهاء والعلماء حتى داخل المذهب الواحد، وهو ما أدى إلى ظهور الفتن والانشقاقات، وخروج البعض عن مبادئ الشريعة، ودخولهم في البدع والزندقة، والشعوذة، وهذا ما لاحظناه من دراستنا للصوفية.

ومن النتائج التي توصلنا إليها، هي أن اختلاف العصور والأمكنة بين نازلة وأخرى لا يمكن أن يكون عائقا حقيقيا لاستخراج المادة الاقتصادية والفكرية، بل أن تناول القضية الواحدة من طرف عدة فقهاء من شأنه أن يثري هذه المادة ويساعد على الإلمام بمختلف جوانب المسألة وتتبعها تاريخيا.

واعتماد المازوني على الفقه المالكي، وغيره من الشروح والتقييدات، لا يمكن أن يفقد نوازله كل دلالتها التاريخية نظرا لشمولية الفكر العربي الإسلامي، وتشابه نظم العيش في بلاد المغرب طوال عصور مختلفة، بحيث نجد بعض القضايا المعاصرة اليوم بحاجة إلى اجتهاد الفقيه النوازلي، فالقضايا الطبية المعاصرة، كاستئجار

الأرحام، وأطفال الأنايب، والمشاكل الاقتصادية المعاصرة، كالتأمينات، والفوائد البنكية، والسندات والكمبيالات، ومختلف أنواع التأمينات، والمشاكل الاجتماعية التي لا تعد ولا تحصى، وأظن أن أكبر مجالين للاجتهاد النوازي اليوم هو المجال العلمي، المتمثل في الطب، والمجال الاقتصادي، لأنها تطورت وتشعبت، وكثرت فيها أنواع الربا وتلونت بألوان كثيرة.

وكما رأينا فإن استنباط المادة الاقتصادية والفكرية من باطن الكتب الفقهية تحتاج إلى حفريات عميقة في ثلاث مستويات متضادة، الأول/ يتمثل في القراءة الفقهية للمسألة، والثاني في دراسة تاريخها، أي تحديد الزمان والمكان والأعلام، كي نصل إلى المستوى الثالث، وهو استنباط المادة الاقتصادية والفكرية المراد استخراجها وتشخيصها.

تعتبر هذه الدراسة توضيح لبعض الخطوط العريضة لدراسة بعض مظاهر الحياة الاقتصادية والفكرية التي شهدتها المغرب الإسلامي، انطلاقا من رؤية جديدة، والمتمثلة في استنباط المادة الاقتصادية والفكرية من خلال الفتاوى الفقهية.

وأخيرا فإن النتائج التي توصلنا إليها ليست نهائية، وهي عبارة عن فرضيات عمل يستوجب تدقيقها وتعميقها من خلال قراءات أكثر شمولاً وتنوعاً، بحيث ينطلق منها أي باحث يريد الاهتمام بالتراث الاقتصادي والفكري للمغرب الإسلامي خلال فترة دراستنا، بواسطة مصادر دفينة قل من يعرف قيمتها في الدراسة التاريخية، والتي أصبحت ضرورة حتمية في الوقت الراهن في الدراسات التاريخية، ومن يغفل عن استعمالها يبقى عمله غير مستوفى، نظرا لما تحتويه هذه المصادر من المعلومات قد لا يجده الباحث في المصادر الأخرى وذلك لأهميتها، حسب ما ذكرناه في بداية البحث.

وهكذا فإن كتب النوازل بصفة عامة تمكننا من قراءة جديدة للتاريخ الاقتصادي والفكري للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

أما فيما يخص الكاتب فإنه لم يحظ بترجمة معاصريه، ومن جاء بعده، فكل ما عثرنا عليه من ترجمة فهي ذكر المؤرخ أحمد بابا التمبكتي، وهو تعريف مختصر وغير مستوفي ومستنبط من مقدمة الكتاب، ولهذا عملت على إيجاد وثائق أخرى تمدنا بمعلومات أخرى غير التي ذكرها المصدر السابق، فحصل ما تمنيناه وما كنا نبحت عنه، وذلك باكتشاف تقرّظ تلميذه أحمد الونشريسي الذي وجدناه في نسخة المهدي البوعديلي بوهرا، والذي أشار إليه هو فيه إحدى المقالات السالفة الذكر، وساعدنا في التعريف بهذه الشخصية المغمورة الفذة، واعتمدنا في بعض الأحيان على كتاب الدرر نفسه، وهذا عندما كان يصعب علينا إيجاد معلومات تستوفي ما نحتاج إليه حول هذا العلامة، فكنا نرجع إلى تحليل بعض الأحداث التي تعرض لها في نوازل واستنباط ما نحتاجه للتوضيح، مثل مسألة توليته قضاء تنس السالفة الذكر، والتي استنتجنا بأنه تولي قضاء تنس، وغيرها من المسائل التي نفضت لنا بعض الغبار عن حياة أحد الأعلام المغمورين الذين ما زالوا في طي النسيان، وأهمهم كل من جاء بعدهم من الخلف، بالرغم مما قدموه لهذه الأمة. وما هذا التراث الذي بين أيدينا إلا دليل على ما قدم لنا عن تاريخ ماضينا وتاريخ الأسلاف، وأخذ العبر منهم، وذلك من خلال دراسة بعض الجوانب الاقتصادية والفكرة من التراث الذي ما زال مهما في رفوف الخزائن الخاصة والمكتبات، بالرغم من الجهود التي تبذل من أجل إخراجها⁽⁷⁷⁾، وما دراستنا هذه إلا مساهمة منا في الاحتفاظ بتراث أمتنا الذي تركه أحد أسلافنا.

الهوامش

- (1) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج2، ص36.
- (2) الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة ليدن، 1864م، ص100.
- (3) مولاي بالحميسي: دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن 15م/20م، محاضرات الموسم الثقافي 1998/1999، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ص101.
- (4) يحيى بن خلدون، بغية الرواة في ذكر الملوك من بني عبد الوادي، ج2، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م، ج1، ص186-التنسي، نظم الدرر والعقيان في بيان شرف ملوك بني زيان، تحقيق محمود بوعلياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص116.
- (5) نسبة إلى قبيلة مغيلة، وهي بطن من بطون بني فاتن إحدى القبائل البربرية من قبائل زناتة، ومواطنها بمواطن مغراوة، ومغيلة توجد واحدة بالمغرب الأقصى، والأخرى بالمغرب الأوسط عند مصب حوض الشلف في البحر من ضواحي مازونة، وهي التي ينسب إليها مؤلف الدرر. أنظر-/ عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج7، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959م، ج6، ص120، 148، 206.
- (6) هو موسى بن يحيى بن عيسى من علماء القرن التاسع الهجري، توفي أواسط هذا القرن، نشأ بـمازونة وأخذ عن كثير من علماء عصره، وكان قاضيا ألف الراق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق، وحيلة المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه، وديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، وكان من العلماء المذكورين في هذه الديار معروف بالذكاء والورع والتقوى عالما مستفيدا ومعلما مفيدا وقاضيا مشهودا له في مدينة مازونة واستمر في القضاء إلى آخر حياته مع القيام بالتدريس ونشر العلم والدعوى. راجع ترجمته في /-أحمد بابا التمكني، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مطبعة المعاهد، مصر، 1351هـ/1932م، ص605. - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1971، ص197. - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م، ج2، ص583.
- (7) أنظر تقریظ النونشريسي في : /- الملحق رقم 02 في دراستنا، ص207.

- (8) التادلي، كتاب التشوف لرجال التصوف، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 2600، نقلا عن: مولاي بلحميسي، "دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن 15 إلى القرن 20م"، ملتقى أعلام الفكر، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1996م، ص3. إلا أن مولاي بلحميسي لم يوضع اسم التادلي، ولم نستطع الحصول على المخطوط.
- (9) محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقدم وتحقيق محمد أهيلة، 2 مج، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1984، مج1، ص219-224.
- (10) ألفه أبو يعقوب يوسف ابن الزياني التادلي المتوفي سنة 617هـ / 1220م، وعنوانه الكامل "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" قام بتحقيقه أودلف فور، مطبوعات إفريقيا الشمالية، الرباط، 1958م.
- (11) يحتفل أن يكون الكتاب الذي ترجم منه مولاي بلحميسي هو الكتاب الأول لأن صاحبه توفي بعد المازوني، حسب ما ذكره لنا مؤلف الحلل السندسية السالف الذكر، وتبقى هذه فرضية والله أعلم.
- (12) أنظر ترجمته عند حديثنا عن شيوخ المازوني.
- (13) المازوني، مصدر سابق، نسخة وهران، ورقة 133 وجه.
- (14) نفسه، نسخة الحامة، ج2، ورقة 146 وجه.
- (15) نفسه، ج2، ورقة 128 وجه.
- (16) مصدر سابق، ج1، ورقة 381 وجه.
- (17) ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، قدم له عبد الرحمن طاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص42.
- (18) لمزيد من المعلومات حول ترجمته. راجع/- أحمد بابا التميمي، مصدر سابق، ص359-ابن مريم، مصدر سابق، ص42- الحفناوي، مرجع سابق، ج1، ص189. - الزركلي، الأعلام، ج8، ص175.
- عادل نويهض، مرجع سابق، ص204- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، ج2، الجزائر، 1995، ج2، ص278، 277.
- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ص265.

- الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، تقدم الغوتي بن أحمدان، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص437.

(19) تحقيق مختار حساني للدرر المكنونة، ج3، سنة 2004م.

- انظر مقالتي جاك بارك:

-Berque (J), "En lisant les mazouna", in studia islamica, Paris, 1970, pp31-39.

-Berque (J), "l'intérieur du maghreb, Paris, 1970, pp19-64 -

- مولاي بلحميسي، مرجع سابق.

- محمد الأمين بلغيث، "مدرسة مازونة الفقهية وأثارها خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي"، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، ع01، نحر الشريعة، الجزائر، 2004، ص116-132.

- طلبة من كلية أصول الدين، لتحضير رسائل ماجستير من خلال كتاب الدرر:

- يسمينة منصور "مسائل الزكاة" من خلال كتاب "الدرر"، رسالة ماجستير قيد الانجاز.

- زهرة شرقي "مسائل البيوع" من خلال كتاب "الدرر"، رسالة ماجستير قيد الانجاز.

- مصطفى مسعودي "مسائل الجهاد" من خلال كتاب "الدرر"، رسالة ماجستير قيد الانجاز.

- وزميلي بقسم التاريخ علي شعوة، الذي يحضر مذكرته حول "الحياة الاجتماعية" من خلال كتاب الدرر.

(20) أنظر/- الملحق رقم 02 في دراستنا، ص207.

(21) هو أحد طلبة مازونة المتفوقين في الثلاثيات من القرن العشرين الميلادي، ومن الذين اهتموا بالدراسات التاريخية وخاصة في التنقيب عن المخطوطات، وشغل منصب عضو في المجلس الأعلى الإسلامي لعدة سنوات بعد الاستقلال، وله مقالات عديدة ومهمة عن التراث الإسلامي في مجلة الأصالة، وله الفصل الثاني الخاص بالحياة الفكرية للجزائر في العهد العثماني، في كتاب "الجزائر في التاريخ" ج4. وغيرها من الكتابات الخاصة بتراث الأمة. ومن أبرز آثاره المكتبة التي خلفها بوهران ببطيوة والتي فيها مئات المصادر المهمة وخاصة المخطوطات، والتي احتفظت لنا بإحدى نسخ كتاب الدرر.

ويعود الفضل في حصولي على هذا التقرير إلى الطالبة يسمينة منصور سائلة الذكر، وهي مرشدة دينية بمقاطعة الخراش، والتي لم تبخل علي بأي معلومة حصلت عليها من مكتبة المهدي البوعبدلي، رغم الصعوبات التي واجهتها من أجل الحصول على هذه الوثيقة، حيث أن هذه المكتبة لم يعتنوا بها ورثة العلامة المهدي البوعبدلي، لا استفادوا منها ولم يتركوا المجال للباحثين للاستفادة منها، رغم ما امتاز به الشيخ البوعبدلي من جود وكرم وعلماء، واستنتجت ذلك من

- خلال كتاباته، وما وصلني من أخبار عنه، من معاصريه الذين يشهدون له بذلك، وخاصة لما كان عضوا في المجلس الأعلى الإسلامي.
- (22) "الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحيى الونشريسي"، مجلة الأصاله، ع83-84، إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1980م، ص25-28.
- "المراكز الثقافية وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ"، مجلة الأصاله، ع11، الجزائر، 1972، ص94-105.
- (23) أنظر مصادر ومراجع ترجمته التي سبق ذكرها.
- (24) الحفناوي، مرجع سابق، ج1، ص189. ج2، ص583.
- (25) راجع/- الملحق رقم01 في دراستنا، ص206، حيث يذكر بعض شيوخه في مقدمة تأليفه، وكل من ترجم له ذكر الشيوخ الذين أشار إليهم في كتاب الدرر.
- (26) ولد بتلمسان سنة766هـ/ 1365م، ونشأ بها، ثم رحل إلى أقطار المغرب والمشرق، وأخذ عن أشهر علماء عصره، فتضلّع في سائر العلوم العقلية والنقلية، وذاع صيته، فقصده الطلبة من مختلف الأنحاء، مثل عبد الرحمن الثعالبي، والقاضي عمر القلشاني، وغيرهما، قال فيه المازوني "... وشيخي الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ذو التأليف العجيبة، والفوائد الغربية، مستوفي المطالب والحقوقي سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق.."، ومن تأليفه، تفسير سورة الإخلاص، وأرجوزة الروض، مختصر الحاوي في الفتاوى، وغيرها من التأليف. أنظر/- الملحق رقم01 في دراستنا، ص206.
- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج12، نشر مكتبة القدسي، القاهرة، 1353هـ، ج7، ص50.
- أحمد بابا التميمكي، مصدر سابق، ص293.
- ابن مريم، مصدر سابق، ص201-214. - عادل نويهض، مرجع سابق، ص290-292.
- الشيخ(أبو عمران) وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995م، ص486، 487.
- (27) هو أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد العقباي التلمساني، شيخ الجماعة وأحد الفقهاء ورجال الفتوى البارزين بمدينة تلمسان. قال فيه تلميذه المازوني "... الفقيه العالم الحجة الصدر الشهير... قدوة السلف وحجة الخلف المدرس المفتي الخطيب..." أنظر/- الدرر، مصدر سابق، ج2، ورقة92 وجه.
- ولمعرفة المزيد.. راجع/- السخاوي، مصدر سابق، ج6، ص181. - أحمد بابا التميمكي، مصدر سابق، ص365. - الرصاع، مصدر سابق، ص41.

- الونشريسي، مصدر سابق، ج6، ص05- المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج03، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1978، ص25.
- (28) ورد في كتاب الدرر باسم ابن زاغو، وهو أبو العباس ابن المغراوي التلمساني، أخذ عن سعيد العقباتي وغيره من علماء عصره، وانقطع لتدريس العلوم الدينية واللغة والبلاغة والرياضيات، ومن أشهر تلامذته أبو زكرياء المازوني موضوع بحثنا، وأبو الحسن القلصادي، والحافظ التنسي، وابن زكري. ومن آثاره تفسير الفاتحة، وشرح التلمسانية، في الفرائض، وفتاوى عديدة أوردها أبو العباس الونشريسي في المعيار، والمازوني في درره. أنظر /- ابن مريم، مصدر سابق، ص41-43.
- أحمد بابا التنيكتي، مصدر سابق، ص118- ابن القاضي، مصدر سابق، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ط1، ج1، دار التراث مع دار النصر، 1970م، ج1، ص63- محمد بن محمد مخلوف، مرجع سابق، ص254.
- (29) هو أبو عبد الله محمد بن العباس العبادي التلمساني، كان إماما فقيها متفنا في مختلف العلوم، ومن تلامذته الحافظ التنسي، وابن مرزوق الكفيف، والعالم ابن زكري، والونشريسي وغيرهم، ومن تأليفه "شرح جمل الخويجي" و"لامية الأفعال". ولمعرفة المزيد. أنظر /- السخاوي، مصدر سابق، ج7، ص278- أحمد بابا التنيكتي، مصدر سابق، ص493- القلصادي، مصدر سابق، ص109- ابن مريم، مصدر سابق، ص233.
- (30) أبو القاسم البرزلي، وبلقاسم العبدوسي، الإمام الزلديوي، والإمام أبي العباس أحمد بن محرز، بلقاسم القسنطيني، محمد بن قاسم الرصاع، محمد بن قاسم المشدالي وغيرهم. لمعرفة ترجمتهم أنظر /- الرصاع، الفهرست، تحقيق وتعليق، محمد العناني، المكتبة العتيقية، تونس، ط1، 1967م.
- (31) سبق التعريف به، والذي يهمنا في هذه الفقرة هو وفاته التي كانت سنة 803هـ/1401م، وهذا من أجل استنتاج تاريخ ميلاد المازوني.
- (32) المازوني، مصدر سابق، ج1، ورقة 26 ظهر.
- (33) مصدر سابق، ج1، ورقة 27 وجه.
- (34) إلا أن هذا الافتراض غير وارد، وهذا راجع لسببين:
- نجد في العديد من المرات يذكر الإمام ابن عرفة ولا يذكر شيخنا إلا نادرا، وربما يكون قد وقع ذلك سهوا، سواء الإمام المازوني، أو الناسخ، إضافة إلى المتلة العلمية التي يتمتع بها ابن عرفة، لو كان شيخه كيف يغفل عن ذكره في مقدمة كتابه.
- أما السبب الثاني، فرمما تكون مشيخة العلم، وليس بالضرورة مشيخة التعليم، وتلفظ بها تبيحلا للعلم الذي يحمله ابن عرفة.

- (35) ويعود إلى إغفال المصادر التي ترجمت له، وعدم تعرضها لشيء عن حياته العملية ومراحل طلبه للعلم، ما عدا ذكرها لشييوخه وتوليته القضاء.
- (36) كان قاضيا في مازونة ثم تنس وفي آخر حياته انتقل إلى تلمسان باستدعاء من السلطان الزياني المتوكل لمنصب القضاء والفتوى والتعليم والشورى. أنظر/- الملحق رقم 02 في دراستنا، ص207.
- (37) راجع -/ مبحث التربية والتعليم في الفصل الثالث من هذه الرسالة التي توضح طريقة التعليم والكتب المعتمدة في عصره.
- (38) محمد الأمين بلغيث، مدرسة، مرجع سابق، ص116-132.
- (39) المازني، مصدر سابق، ج2، 49 وجه، وظهر.
- (40) أنظر سبب انتقاله إلى تلمسان في الملحق رقم 02 في دراستنا، ص207.
- (41) محمد بن أبي ثابت المتوكل على الله، ملك من ملوك بني زيان في تلمسان، تولى الحكم (866هـ/1461م-873هـ/1468م)، وهو الذي نبّ دار الونشريسي وكان سببا في هجرته إلى المغرب سنة 874هـ/1469م. ولمعرفة المزيد أنظر/- عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج2، ص199.
- (42) أنظر -/ الملحق رقم 02 في دراستنا، ص207.
- (43) يقال له أيضا ابن الصربي، توفي 444هـ/1053م، هو من أكبر الاختصاصيين في القرآن وعلومه، ورواياته، وتفسيره، له كتاب "التيسير في القراءات السبع"، وقام أبو القاسم الرعيني الشطبي بوضع نظم لهذا الكتاب سماه "حز الأمان ووجه التهاني". أنظر -/ محمود بوعباد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، للجزائر، 1982م، ص69.
- (44) المازوني، مصدر سابق، ج2، 128 وجه.
- (45) أبو العباس أحمد (834هـ/1431م-867هـ/1463م)، ومحمد المتوكل (866هـ/1462م-877هـ/1473م)، وأبو عبد الله التابتي (877هـ/1473م-910هـ/1505م). أنظر -/ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج2، ص197، 198، 199.
- (46) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط02، ج01، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ج2، ص31.
- (47) الحاج محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ص437.
- (48) مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ج2، ص31، 32.

- (50) أنظر /- الملحق رقم 01 في دراستنا، ص 206.
- (51) نفسه.
- (52) نفسه.
- (53) نفسه.
- (54) نفسه.
- (55) أنظر /- الملحق، رقم 03 في دراستنا، ص 208.
- (56) موجودة بخزانة العلامة المرحوم سيدي عبد القادر بن يسعد البرنلي، دفين قرية الدبة قرب قلعة بني راشد بغليزان، منسوخة، في رجب عام 1050هـ/1640، منقولة عن النسخة الأصلية التي عليها تقييض الونشريسي عام 871هـ/1467م، أنظر /- هامش الملحق رقم 02 في دراستنا، ص 207.
- (57) حسب آخر المعلومات التي تحصلت عليها، توجد 07 نسخ للمخطوط:
- مخطوط المكتبة الوطنية (الحامة)، الجزائر، تحت رقم: 1335، 1336.
 - مخطوط بخزانة الشيخ المهدي البوعبدلي، بمدينة بطيوة، وهران، الجزائر.
 - مخطوط أدرار، بمسجد قصر آن زغمير، الجزائر.
 - مخطوط بخزانة أولاد الشيخ الحسين، سيدي خليفة، ميلة، الجزائر.
 - مخطوط الخزانة العامة بالرباط، المغرب، تحت أرقام متعددة، الجزء الرابع الخاص بمسائل الجامع، تحت رقم: 383.
 - مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، تحت رقم: 3132.
 - مخطوط بخزانة عائلة قاسيمي، بمدينة عين وسارة، الجزائر. وعند اتصالي بهذه العائلة، بلغني أنه بعد وفاة الأب وزرعت على الورثة، وهي عند أحد أفراد هذه العائلة وهو مقيم بالمامل، وبما أنني أقطن بعين وسارة، فأنا في اتصال دائم مع هذه العائلة من أجل الحصول على نسخة من هذا المخطوط، وهذا إلى غاية كتابة هذه الأسطر.
- (58) الجزء الثاني يتكون من 190 ورقة ناسخه محمد الصديق المشرقي، تاريخ النسخ 1245هـ/1820م، إلا أننا نلاحظ في بعض الأحيان يتغير الخط، وهذا مما يدل على الناسخ لم يكن واحدا، فهناك من كان يساعده في بعض الأحيان، وهو ما لاحظناه من خط بعض الورقات، ربما يكون أحد تلاميذته. للمزيد- أنظر /- نفسه، ورقة 30 وجه، وظهر، ورقة 33 وجه وظهر، وورقة 51 وجه، ورقة 51 ظهر، ورقة 57 وجه- 58 ظهر وغيرهم.
- (59) أنظر / الملحق رقم 03 في دراستنا، ص 208.
- (60) الجزء الأول يتكون من 516 ورقة، مبتور المقدمة والخاتمة، أدخل مصلحة الترميم، ولا يسمح برؤيته، مع ضياع الورقة 194 و195 وجه وظهر، إلا أن الميكروفيلم المصغر قد حفظ دراسات تراثية العدد 01، 2007

لنا الديوان كاملا وبه حوالي 16 لقطة غير واضحة، ينتهي بصفتين لهما البسمة ونص غير واضح وورق به آثار الرطوبة، ولولاه ما استطعنا تصفح هذا الجزء. وبالمنااسبة أقدم شكري لكل من يسهر على حفظ هذا الكثر من المخطوطات الذي لا يقدر بثمن، ولم يخلوا بتقديم المساعدة للباحثين الذين يريدون النهل من هذا الكثر، وأخص بالذكر الأخ رشيد.

- الجزء الثاني: المعنون "بمسائل الضرر والدعاوي" حالته جيدة وغير ناقص. أنظر/-ج2، رقم: 1336 بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

(61) الجزء الأول يحتوي على 18 سطر، والجزء الثاني يحتوي على 38 سطر.

(62) سبق ذكر ما كتبه جاك بيرك حول نوازل المازوني، في هذا الفصل.

(63) كترجمة محمد بن يوسف القيسي، الذي عرف بالثغري. أنظر/-ابن مريم، مصدر سابق، ص222 وغيرها.

(64) أنظر/- الملحق رقم 02 في دراستنا، ص207.

(65) أنظر/- المعيار، مصدر سابق، ج1، مقدمة المحقق.

(66) سبق ذكرها.

(67) وهذا ما وصلت إليه الطالبة زهرة شرفي التي تحضر رسالتها في مسائل البيوع من خلال كتاب الدرر، في دراستها الفقهية، حسب ما أحررتني به أثناء الاستفسار عن بعض المسائل التي صعب علي فهمها، فلم تبخل علي بأي معلومة أو فكرة وصلت إليها حول كتاب الدرر، وأمدتني بمعلومات جد مهمة ساعدتني في دراستي هذه، فلها الفضل في إنجاز هذا العمل خاصة في المسائل الفقهية التي صعب علي فهمها، وأقنني لها التوفيق في إنجاز دراستها.

(68) محمد بن أبي القاسم الفلاحي، الطليحية في الكتب والأقوال المتعددة عند المالكية، مخطوط بزاوية ميله، ورقة 2وجه. لمزيد من المعلومات أنظر/- الملحق رقم 01 في دراستنا، ص206.

(69) كالمدونة لابن سحنون، وفي قوله "لجأت إلى كتب الأسدلة من نوازل الأحكام، أنظر/- الملحق رقم: 01 في دراستنا، ص206.

(70) مثل ابن رشد، البرزلي وغيرهم، ونجد ذلك في الكثير من المسائل التي تطرق إليها.

(71) قوله.... مما يقع لي مع الأصحاب في المذكرات في مجلس الإقراء من أشكال كلام ابن الحاجب أو شرحه.... "لمعرفه المزيد راجع/- الملحق رقم01 في دراستنا، ص206.

(72) وهذا ما لمسنه في إحدى الفتاوى بقوله: "...مسألة كانت قد وقعت بين مولاي الوالد رحمه الله وبعض الفقهاء المرسلين في مجلس تدريسه، قال: مولاي الوالد رحمه الله تحدث الفقيه في مسألة السمع والبصر...".

أنظر/- المازوني، مصدر سابق، ج2، ورقة 148 ظهر.

(73) مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص 02-03.

- محمد الأمين بلغيث، مرجع سابق، ص 125.

(74) هذا عندما يرسل أشياخه وغيرهم، وهو ما ذكرناه في العديد من المرات في هذه الرسالة. وفي سؤال وجهه إلى: محمد بن أحمد بن قاسم العقباني ورد فيه "... أعرف كما لكم أني أردت أن أعرض عليكم بعض ما يعرض لي للنظر في ذلك بنظركم..." أنظر/- المازوني، مصدر سابق ج2، ورقة 128 وجه.

(75) هذه هي الصيغة الغالبة والطريقة التي اشتمل عليها كتاب الدرر، حيث وردت النوازل فالإجابات تليها، ولمعرفة المزيد أنظر/- نفسه، ج01، ج02، رصيد المكتبة الوطنية الحامة، الجزائر، رقم: 1335-1336.

(76) أنظر/- الملحق رقم 01 في دراستنا، ص 206.

(77) سبق التطرق لذلك أثناء هذه الدراسة.

بقلم الأستاذ: غرداوي نور الدين



العمـران

